باقة من الفلسفة الإسلامية

لماذا يجب ألا نخشى الموت؟

« مهداة إلى معالي الأستاذ الجليل وزير الأوقاف »

للأستاذ محمد حسن ظاظا

« ما الموت إلا تمام حد الانسان لأنه هو ناطق ميت ، فالموت تمامه وكماله ، وبه يصير إلى أفقه الأعلى »
« عن الفيلسوف مسكويه »

كثيراً ما ادعى المتعصبون للفكر اليوناني أن الشرقيين لم يحذقوا التدليل النظري المحكم كما حذقه اليونان ، وأن الفلسفة الإسلامية لا تكاد تخرج في مجموعها عن آراء أفلاطون وأرسطو بحيث أن كل ما هناك من فرق بينهما لا يستطيع أن ينهد للاسلاميين بالخلق المجيد والإبداع الطريف ! ومهما تكن أسباب هذا الادعاء من جهل وتعصب ، فأظن أنه ليس أنجح في دحضه من نشر آيات الفلسفة الإسلامية والتعليق على ما فيها من أوجه الطرافة والإبداع

لذلك أقدم للقراء اليوم باقة من باقات الفيلسوف « مسكويه » الذي حدثتهم عنه في العام الماضي[1] . وأزعم أن هذه الباقة من أقوى وأجمل وأدق آيات الفلسفة الإسلامية تدليلاً وإبداعاً ؛ وأنها لا تقل في موضوعها عن كتابات الفلاسفة اليونانيين شمولاً واتساقاً وجمالاً وتحليلاً !

وموضوع هذه الباقة هو : « دفع الغم من الموت ! » أو لماذا يجب ألا نخشى الموت . وأحسب أنك تقدر تماماً خطورة هذا الموضوع ! بل أحسب أنك لا ترى في الحياة ما هو جدير حقاً بالخوف منه ، والرعب غير الموت : ذلك البلاء الداهم الذي يلبسنا ثوب الحداد ويمزق منا الصدور ويقطع نياط القلوب ! ذلك الذي يصبغ الكثير من أيامنا بالسواد ويطلق أصوات الأمهات والزوجات والأطفال بالصياح والعويل والشكوى المريرة والأنين المبحوح ! أجل أحسب أنك تقدر ذلك كله ! وتعرف أن اطمئنان القلب للعقائد الدينية يحتاج في الكثير من الأحيان إلى برهان العقل كيما يزداد ثباتاً ورسوخاً ؛ ولذلك كان من أهم الأبواب في الفلسفة الإسلامية باب التدليل على صحة ما في الدين من أقوال وقضايا ووعود؛ وكان موضوع « الموت » من أهم القضايا التي تناولها ذلك الباب.

ويعرض مسكويه لهذه المسألة في المقالة السابعة من كتابه الخالد « تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق » . وهي مقالة « رد الصحة على النفس ومعالجة أمراضها » وكان قد وضع في المقالات السابقة دستوره الخلقي الإيجابي الذي أثبت فيه روحانية النفس البشرية وخلودها ، وحدد الفضائل وأضدادها ، وبين السعادة ودرجاتها وكيفية الحصول عليها ووسائل حفظ الصحة على النفس السليمة : فرأى أن يختم الموضوع بمعالجة النفس المريضة ودفع أهم ما تتعرض له في حياتها من مخاوف وأحزان

لذلك تراه يقول بعد فراغه من معالجة « الخوف » وأسبابه :

« فهذه جملة الكلام على الخوف المطلق ، ولما كان أعظم ما يلحق الإنسان منه هو خوف الموت ، وكان هذا الخوف عاما وهو مع عمومه أشد وأبلغ من جميع المخاوف ، وجب أن نبدأ بالكلام فيه فنقول :

« إن الخوف من الموت ليس يعرض إلا لمن يدري ما الموت على الحقيقة ، أولا يعرف إلى أين تصير نفسه ، أو لأنه يظن أن بدنه إذا انحل وبطل تركيبه فقد انحلت ذاته وبطلت نفسه بطلان عدم ودثور ، وأن العالم سيبقى موجوداً وليس هو بموجود فيه كما يظنه من يجهل بقاء النفس وكيفية المعاد ، أو لأنه يظن أن للموت ألما عظيما غير ألم الأمراض التي ربما تقدمته وأدت إليه وكانت سبب حلوله ، أو لأنه يعتقد عقوبة تحل به بعد الموت ،

(١) وهو فارسي الأصل ، خدم الدولة البويهية ومات عام ٤٢٠ هـ

وأديرت كؤوس الفرح ، ورجعت الأعراس ...

ولكن الأعراس لم تتم ... لم تتم يا زمان الشؤم

هذا صوت النذير العريان ، وهذه ألسن النيران ، وهذا صوت البركان ، فماذا يحمل إلينا الغد يا زمان ، أي مصيبة جديدة يأتينا بها ؟ أكتب علينا ألا نستريح ولا نهدأ أبداً ؟

لا بأس يا زمن الشؤم ، إننا نرحب بالمصائب فسقها إلينا ، إننا بنو المجد والحرية والحياة ، فلا أمتعنا الله بالحياة إن لم ننتزعها من بين فكي الموت انتزاعاً ...

وستحيا أنت يا (بلدي الحبيب) ماجداً حراً ولو متنا نحن ماجدين أحرارا !

« بغداد »

علي الطنطاوي

أو لأنه متحير لا يدرى على أى شىء يقدم بعد الموت ، أو لأنه يأسف على ما يخلفه من المال والقنيات[1]؛ وهذه كلها ظنون باطلة لا حقيقة لها .

« أما من جهل الموت ولم يدر ما هو على الحقيقة فإنا نبين له أن الموت ليس بشىء أكثر من ترك النفس استعمال آلاتها وهى الأعضاء التى يسمى مجموعها بدناً كما يترك الصانع استعمال آلاته[2] وأن النفس جوهر غير جسمانى وليست عرضاً ، وأنها غير قابلة للفساد[3] ، ... فإذا فارق — (هذا الجوهر) — البدن كما قلنا ، وعلى الشريطة التى شرطنا[4] ، بقى البقاء الذى يخصه ، ونقى من كدر الطبيعة ، وسعد السعادة التامة ، ولا سبيل إلى فنائه وعدمه ، فإن الجوهر لا يفنى من حيث هو جوهر ، ولا تبطل ذاته ، وإنما تبطل الأعراض والنسب والإضافات التى بينه وبين الأجسام بأضدادها . فأما الجوهر فلا ضد له . وكل شىء يفسد فإنما فساده من ضده . . . وإن أنت تأملت الجوهر الجسمانى الذى هو أحسن من ذلك الجوهر الكريم ، واستقريت حاله ، وجدته غير فان ولا متلاش من حيث هو جوهر ، وإنما يستحيل بعضه إلى بعض[5] ، ... هذا فى الجوهر الجسمانى القابل للاستحالة والتغيير ، فأما الجوهر الروحانى الذى لا يقبل الاستحالة ولا التغير فى ذاته ... فكيف يتوهم فيه العدم والتلاشى ؟؟.

« وأما من يخاف الموت لأنه لا يعلم إلى أين تصير نفسه ، أو لأنه يظن أن بدنه إذا انحل وبطل تركيبه فقد انحلت ذاته وبطلت نفسه ، وجهل بقاء النفس وكيفية المعاد ، فليس يخاف الموت على الحقيقة وإنما يجهل ما ينبغى أن يعلمه ، فالجهل إذاً هو المخوف ، إذ هو سبب الخوف ، وهذا الجهل هو الذى حمل الحكماء على طلب العلم والتعب به ... فاستحقروا جميع ما يستعظمه الجمهور من المال والثروة واللذات الحسية ... واقتصروا منها على القدار الضرورى فى الحياة وتسلوا عن فضول العيش[1] ... « ... على أن من خاف الموت الطبيعى للانسان فقد خاف ما ينبغى أن يرجوه ، وذلك أن هذا الموت هو تمام حد الإنسان لأنه حى ناطق ميت ، فالموت تمامه وكماله ، وبه يصير إلى أفقه الأعلى ، ومن علم أن كل شىء هو مركب من حده ، وحده مركب من جنسه وفصوله ، وأن جنس الإنسان هو الحى ، وفصلاه الناطق والمائت ، علم أنه سينحل إلى جنسه وفصوله لأن كل مركب لا محالة منحل إلى ما تركب منه ، فمن أجهل ممن يخاف تمام ذاته ، ومن أسوأ حالاً ممن يظن أن فناءه بحياته ونقصانه بتمامه ؟ . وذلك أن الناقص إذا خاف أن يتم فقد دل من نفسه على غاية الجهل ، فإذاً الواجب على العاقل أن يستوحش من النقصان ، ويأنس بالتمام ، ويطلب كل ما يتممه ويكمله ، ويشرفه ، ويعلى منزلته ، ويخلى رباطه من الوجه الذى يأمن به الوقوع فى الأسر ، لا من الوجه الذى يشد وثاقه ويزيده تركيباً وتعقيداً[2] . . .

« وأما من ظن أن للموت ألماً عظيماً غير ألم الأمراض التى ربما اتفق أن تتقدم الموت وتؤدى إليه ، فعلاجه أن نبين له أن هذا ظن كاذب لأن الألم إنما يكون للحى والحى هو القابل لأثر النفس ، وأما الجسم الذى ليس فيه أثر النفس فإنه لا يألم ولا يحس ...

وأما من خاف الموت لأجل العقاب الذى يوعد به فينبغى أن نبين له أنه ليس يخاف الموت بل يخاف العقاب ، والعقاب إنما يكون على شىء باق بعد البدن العاثر . . . فهو إذاً خائف من ذنوبه لا من الموت ، ومن خاف عقوبة على ذنب فالواجب عليه أن يحذر ذلك الذنب ...

وأما من زعم أنه ليس يخاف الموت وإنما يحزن على ما يخلف من أهله وولده وماله ونشبه ، ويأسف على ما يفوته من ملاذ الدنيا وشهواتها ، فينبغى أن نبين له أن الحزن تعجل ألم ومكروه على مالا يجدى الحزن إليه بطائل ، وسنذكر علاج الحزن فى باب

(١) نحسب هذا الاحصاء لأسباب الخوف من الموت شبه جامع .

(٢) هذا الرأى فى أن أعضاء الجسد ليست غير آلات للنفس من أقوى الآراء فى مذهب الروحانية .

(٣) برهن مسكويه على روحانية النفس فى المقالة الأولى من كتابه وفى كتابه الآخر « الفوز الأصغر » . ومن أهم براهينه على ذلك أن النفس تقبل صوراً كثيرة فى وقت واحد بينما الجسد لا يقبل فى المكان الواحد إلا صورة واحدة فاذا أردنا إحلال صورة أخرى محلها محونا الأولى تماما بعكس الحال فى صورة النفس .

(٤) يقصد شريطة الفضيلة والعلم لأن السعادة عنده لا تنال فى الدنيا والآخرة إلا بهما .

(٥) وهذا أحدث آراء الكيمياء فى أن المادة لا تفنى .

(١) الجهل إذا هو سبب الخوف فيجب أن نتخلص منه بالعلم . وقد بين مسكويه فى كتبه روحانية النفس وعدم خضوعها لما يصاب به الجسم بعد الموت . وهاهم أولاء علماء الروحانية فى العصر الحاضر يحاولون جادين أن يصلوا إلى حقيقة الروح .

(٢) يقصد أن الحياة أسر وتعقيد لاتصال الروح فيها بأوضار الجسد وكان يرى أن السعيد بعد الموت هو من يعود إلى جوار الله تعالى ويخالط الأرواح الطيبة من أشكاله وأشباهه بينما الشقى هو من تكون نفسه مشتاقة أبدا إلى جسده فلا تستطيع بعد الموت أن تسمو فى صعودها وتجردها إلى مقام النفوس السعيدة وتبقى أبدا شقية على حافة العالم المادى (أنظر الفوز الأصغر)

مفرد له خاص[1] لأنا فى هذا الباب إنما نذكر علاج الخوف ، وقد أتينا منه على ما فيه مقنع وكفاية ، إلا أنا نزيده بيانا ووضوحا فنقول :

« إن الإنسان من جملة الأمور الكائنة ، وقد تبين فى الآراء الفلسفية أن كل كائن فاسد لا محالة، فمن أحب ألا يفسد فقد أحب ألا يكون ، ومن أحب ألا يكون فقد أحب فساد ذاته ، فكأنه يحب أن يفسد ، ويحب ألا يفسد ، ويحب أن يكون ، ويحب ألا يكون ، وهذا محال لا يخطر ببال عاقل ، وأيضاً فإنه لو لم يمت أسلافنا وآباؤنا لم ينته الوجود إلينا ، ولوجاز أن يبقى الإنسان لبقى من تقدمنا ، ولو بقى من تقدمنا من الناس على ما هم عليه من التناسل ولم يموتوا لما وسعتهم الأرض ... فياما فكيف قعودا أو متصرفين ؟ ...

« فقد ظهر ظهورا حسيا أن الموت ليس بردىء كما يظنه جمهور الناس وإنما الردىء هو الخوف منه ، وأن الذى يخاف منه هو الجاهل به وبذاته ... وأما جوهر النفس الذى هو ذات الإنسان ولبه وخلاصته فهو باق وليس بجسم ... وإنما (يستفيد) بالحواس والأجسام كمالا[2] فإذا كمل بها ثم خلص منها صار إلى عالمه الشريف القريب إلى بارئه »[3]

* * *

وبعد فهذا تدليل مسكويه على وجود عدم الخوف من الموت بناه فى مجموعه على روحانية النفس وأقامه على المنطق المستقيم والذوق السليم ، فهلا ترى معى أنه أبدع فى الكثير من حججه إبداعاً جديراً بالتقدير ؟ الحق أننا ندعو ملحين إلى قراءة كتابه « تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق » ، وإلى المقارنة بينه وبين كتب أرسطو وأفلاطون فى الأخلاق لأنا نعتقد أنه يفوقهم فى الكثير من فصوله قوة ومنطقاً واتساقاً وانسجاماً . وأنه يقترب فى بعض أفكاره من الآراء الفرنسية التى ظهرت أخيراً وعالجت نواحى علم الأخلاق .

محمد حسن ظاظا

(١) ونرجو أن نعود إلى تحليل طرافة هذا الباب فى فرصة أخرى .

(٢) ويتأتى ذلك من « الجهاد الأكبر » جهاد الجسد وشهواته .

(٣) وقد نسب البعض هذه المقالة إلى ابن سينا . ولكنا نرجح أنها لمسكويه ولدينا أسباب ذلك الترجيح

مصرع خبيب

للأستاذ ناجى الطنطاوى

سار الرجال صامتين ، يخبون بأقدامهم على رمال الصحراء الملتهبة ، لا يثنيهم عن غايتهم شىء ، ولا يشغلهم عن مرماهم أمر ، وكان عددهم عشرة يرأسهم فتى غض الإهاب ، ذو عزم ومُنة ، هو عاصم ابن ثابت ، أرسلهم النبى صلى الله عليه وسلم عيناً على الأعداء فى بعث الرجيع[1] ، يستطلعون أخبار العدو ويتعرفون إلى عدده وعدته ... كانوا يسيرون مطمئنين آمنين لا يداخل نفوسهم حذر ولا ريب ، وماذا يحذرون وهم فى هذه الصحراء الترامية الأطراف ، نفر قليل لا يتميزون عن سواهم من العرب وليست تبدو عليهم أية شارة تبعث الشك فى نفوس من يراهم ؛ كانت نفوسهم تفيض ثقة بالله وكانت قلوبهم عامرة بالإيمان الثابت الذى لا تزعزعه العواصف ولا توهنه النكبات ، وكانوا قد وطّدوا العزم على القيام بما عهد إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهما لاقوا فى طريقهم من المصاعب والأخطار ، لا يثنيهم عنه إلا الموت

ولما مرّوا فى طريقهم بمكان يقال له الهدأة[2] جاء رجل من

(١) فى أواخر السنة الثالثة للهجرة . والرجيع اسم ماء لهذيل بين مكة وعسفان

(٢) موضع بين عسفان ومكة على سبعة أميال من عسفان ، قريب من الرجيع مكان الوقعة